الاخباريين

تمهيد: يعد الإخباري أحد التقنيات التقليدية في ميدان البحث الأنثروبولوجي، حيث جرى الاستعانة بها من طرف الرواد الأوائل والمعاصرين في مواضيع شتى وأقاليم متعددة، نظير قدرتها على فتح أبواب البحث والتعمق في تفاصيل ثقافة المجتمعات الإنسانية على مصراعيها أمام الباحثين، والتي سنقف على تفاصيلها أكثر في التناول التالي.

أولا. تعريف الإخباري: ويعد أحد التقنيات التي طبقها الباحثون الأنثروبولوجيين في دراستهم للمجتمعات البدائية، وذلك من خلال الاعتماد على من يزودونهم بالأخبار من كبار السن العارفين بالعادات والتقاليد والعرف السائد في المجتمع.

فإذا كان موضوع البحث هو "الطب الشعبي"، فإن الإخباريين في هذه الحالة هم الأطباء الشعبيون والمرضى الذين مروا بتجارب علاجية سواء من كبار السن أو غيرهم. أما إذا كان موضوع الدراسة هو القضاء القبلي، فإن الباحث الأنثروبولوجي يتوجه في هذه الحالة بأسئلته إلى "القضاة العرفيين"، والأطراف المتنازعة والمشاركين في إجراءات الصلح

ثانيا. أهمية الإخباري في البحوث الأنثروبولوجية: تتلخص أهمية هذه الطريقة فيما يلي:

- يمد الإخباري الباحث الأنثروبولوجي بالمعلومات المتعلقة بجوانب النشاط الاجتماعي أو الأحداث الاجتماعية التي لا تتاح فرصة المشاركة فيها، وذلك سواء لمقاومة المجتمع ذاته لفكرة إشراك الباحث الأجنبي في هذه النشاطات أو المناقشات التي تدور حولها، أو لوقوع تلك الأحداث في فترة تخرج عن حدود الخطة الزمنية للدراسة الحقلية، أو لعدم تواتر وقوع هذه الأحداث بصفة دورية منتظمة في المجتمع.
- يقدم الإخباريين عونا كبيرا للباحثين، حيث يمكننا القول أن الإخباري يمثل مصدر للمعلومات عن الثقافة أو المجتمع محل الدراسة، ذلك أن الكثير من المواصفات والخصائص والوقائع والعناصر

الثقافية قد أعيد بناؤها من خلال تقارير الإخباريين عما كانت عليه في زمن مضى، خصوصا في المجتمعات التي تفتقر إلى سجلات ومدونات مكتوبة.

- كما يستفيد الباحث من الإخباريين لما يعمل على فهم ثقافة المجتمع المدروس من وجهة نظر أهالي مجتمع البحث، ذلك أن هذا يوفر الكثير من الموضوعية في نتائج الدراسة
- يتمايز الناس فيما بينهم بالنسبة إلى معرفتهم، وتفسيراتهم لنظمهم الاجتماعية والثقافية، كما يختلفون في اهتماماتهم وقدراتهم على التعبير اللغوي.

ثالثا. شروط اختيار الاخباري: ولكي ينجز الباحثين الأنثروبولوجيين عملهم الميداني ويكتبون تقريرهم عنه، فهناك مجموعة من الشروط والمواصفات التي يتبعونها ويلتزمون بها عند تحديدهم واختيارهم للإخباريين أثناء إجراء الدراسة الحقلية، على غرار:

- يجب عليه أن يأخذ في اعتباره طبيعة المقاصد التي يسعى إليها كل من الإخباري والإثنوجرافي عند تقييم المعلومات الناتجة عن هذه العلاقة.
- يجب أن نفحص بتمعن طبيعة العلاقة التي أقامها الباحث الإثنوغرافي مع الإخباري (الإخباريين) الذين استعان بهم ومع المجتمع المحلي، وكيف تؤثر المكانة والوضع الاجتماعي لإخباريين على طبيعة المعلومات التي يحصل عليها الإثنوجرافي. حيث لم يعد من المقبول داخل الإثنوغرافيا الحديثة أن نقرأ عبارات عامة من قبيل "هذا ما يعتقده الناس"، لأن هذه المعتقدات والقيم والاتجاهات تختلف من شخص إلى أخر، وتختلف طبقا لمكانة ووضعية كل فرد داخل شبكة العلاقات الاجتماعية في المجتمع المحلي.
- يجب أن يتحلى بالصبر والجلد، وأن لا يكون متسرعا وان يتمتع بقدر كبير من الاهتمام والوعي بأبعاد الظاهرة التي يقوم بدراستها، وأن يغرق نفسه في حياة الناس، لأن البحث لا يتم إلا بالإقامة الطويلة في مجتمع ما.

رابعا. سمات الإخباري:

- يعد "المخبر"، شخصية مركزية في البحث الميداني لا يمكن تجاوزها.
- كل فرد من مجتمع الدراسة هو مخبر بالقوة، فمن الغلام الاشعث إلى العجوز الذي نظنه خطأ أحيانا بئر معرفة

أن يراعي تقاليد ذلك المجتمع، فلا يسأل عن أمور تتنافى مع قيمه وتقاليده، ولا يسأل المبحوثين في مجتمع متدين عن الشذوذ الجنسي مثلا، ولا يسأل في مجتمع مسلم عن عائد تربية الخنازير.. إلخ،

خامسا. صنوف الاخباريين: في بداية الأمر، لا بد من التأكيد على أنه ليس الإثنولوجي من يختار مخبريه. فالباحث الميداني يرى أولادا يأتون إليه، وراشدين هامشيين، قد يكونوا غريبي الأطوار، يكادون يملكون نفس السمة السيكولوجية أينما كان: فضوليون، أذكياء، مهتمون – بالمعنيين– محتالون، ليس أهلا للأمانة، وأحيانا على علاقة بالسلطة، وهنا يتم الانتقال هنا من المخبر العرضي الذي تمكن من أن يصبح المرافق الملازم والمؤتمن على الأسرار، إلى المخبر المختص. ولسنا بعيدين هنا عن المخبر المحترف الذي يتلقى أجره كما ينبغي، وهو حر أحيانا بتحديد سعره، ويمكن أن يكون مخبر الاثنولوجي السابق، أو أن يصبح مخبر للإثنولوجي العتيد، هذا إن لم ينقل لاحقا شعلة العلم لأحد أبنائه، فهناك سلالات مخبرين حاكمة في بعض المجتمعات

سادسا. طبيعة علاقة بين الأنثروبولوجي والاخباري: وقد أصبحت العلاقة بين الإخباري والباحث الإثنوجرافي محل اهتمام منذ أن تخلت الأنثروبولوجيا عن مسلماتها الساذجة حول تجانس المجتمع البدائي.

ونظرا لأهمية الإخباريين في مجال جمع المعلومات التي تتعلق بمجتمع البحث، كان لازما على الأنثروبولوجي أن يتقرب منهم، ويعقد معهم علاقة ودية ليساعدوه في جمع المعلومات. لذلك سعت بعض الدراسات إلى وضع بعض الطرق المنهجية لاختبار الاتفاق بين الإخباريين والباحث الميداني.

كما ابتكر الباحثون الكثير من الحيل ليتمكنوا من التقرب من الاخباريين، كان يقدم لهم بعض الهدايا وبعض المساعدات كمكافأة مادية، وبعد ذلك يستفيد منهم عن طريق أسئلة يطرحها عليهم لكي يحصل على المعلومات التي يحتاجها.

سابعا. وفرة المعلومة الاخباريين: قبل الاعتماد على الاخباريين وربط الاتصال بهم من قبل الباحث الأنثروبولوجي، لا بد من التأكيد أنه لكل المشروع "أماكن امتيازية" لأن تستخرج منها معلومات غنية ومؤكدة، حيث يتجه تفكيرنا في البداية إلى المسنين وأعيان الدولة، وذوي الاعتبار والسلطة والواضحة.

ولكن إضافة إلى أن التجارب تعلمنا أن الوقار لا يصنع المعرفة، فإن وجهاء الجماعات هم الذين تصعب دائما إقامة علاقة تقنية الطابع معهم. ومع ذلك، كلما تقدم البحث الميداني تحررت الكلمة، وتمكن الباحث من التوصل إلى إعطاء عمله إحدى هاتين الوجهتين: إما زيادة عدد محاوريه، وإما على العكس الاكتفاء بأقوال عدد صغير من المخبرين، أو مخبر واحد أحيانا.

يبقى أن كل مجتمع يضم أناسا غزيري المعرفة، وأن هناك لقاءات تجعل البحث الميداني يتقدم بنجاح: لدينا جميعا معرفة بجماعات يمكن أن يرجع فيها علم الأنساب بشكل شبه كامل إلى بعض النساء المتقدمات في السن، بالاستناد إلى نمط المعلومات واحد فقط.

لقد أعطى العجوز **أوغوتيميلي** لغريول ومعاونوه جوهر نظرة **الدوغون** إلى علم الكون، وذلك خلال محادثات امتدت طيلة ثلاثة وثلاثون (33) يوما، ولكن كشفا كهذا لا يحصل في أي وقت كان، لقد منح **الدوغون** (...) **غريول** عبر صوت الصياد الأعمى العجوز، الفرصة لتجديد منظار بحثه الميداني كليا.

ثامنا. عيوب وأخطأ الإخباري:

- تبقى مسألة صدقية المعلومة مطروحة دائما، خاصة عندما لا تقوم علاقة الانثروبولوجي بميدانه إلا عبر مخبر أو اثنين على الأكثر.
- يشكل صلب موضوع التساؤلات بين الباحثين، لكن نادرا ما تستند إليه مرجعية المعلومة.
- مراعاة مستوى الشعوب البدائية عند دراسته لها، ذلك أن صيغة السؤال الذي يتطلب اجابات مباشرة لم يكن شيئا ملائما، لأن البدائيين لا يملكون تصورات محددة عن أغراض حياتهم ومطالبهم، وهم كذلك لا يستطيعون تفسير دوافعهم بسهولة، وهم أيضا يميلون إلى الاعتقاد بأن مخاطبهم شخص ساذج إذا قام بتوجيه أسئلة ساذجة عن الأشياء التي يعرفها كل فرد بالقبيلة.
- الباحث الأنثروبولوجي الميداني كان دائما ولا يزال إلى حد كبير هو مشروع الرجل الواحد أو الباحث الفرد، بمعنى أن ينفرد باحث واحد بدراسة مجتمع محلي صغير الحجم دراسة مركزة لمدة طويلة من الزمن.